الفصل الثالث

اللغـــة والترجمـــة

في مؤلف فارسي من القرن الرابع عشر عن التاريخ العالمي لاحظ الكاتب وكان يناقش تاريخ أوروبا أن "الفرنجة" يتكلمون خمساً وعشرين لغة ، ولا يفهم شعب لغة الشعب الآخر" ثم يضيف ، والشيء الذي يشتركون فيه هو التقويم والحروف المطبعية والأرقام [1] .

يبدو هذا التعليق طبيعياً لمسلم من العصور الوسطى ، قد تعود على الوحدة اللغوية للعالم الإسلامي الذي به لغتان أو ثلاث ، تخدم احتياجات طبقة الكتبة الصغيرة (مثل اللاتينية في غرب أوروبا) ، وتخدم كذلك باعتبارها وسيلة فعالة في الاتصال العالمي بدلاً من اللغات واللهجات .

في البداية كانت هناك لغة واحدة بين المسلمين ، وهي اللغة العربية ، لغة القرآن ، ولغة الفاتحين العرب . ولفترة من الوقت . . كانت العربية هي اللغة الوحيدة للحكومة والتجارة والثقافة في الأراضي الإسلامية (وقد حلت بشكل سريع ومثير للدهشة محل اللغات التي سبقتها ، وهذه اللغات هي اللاتينية واليونانية والقبطية والسريانية والفارسية ، وهي اللغات التي ازدهرت في الأراضي التي تخص الإمبراطورية الإسلامية الآن) .

لقد اختفت اللغات اللاتينية واليونانية تقريباً ، وبقيت القبطية والسريانية لغتين كنسيتين (للشعائر الدينية فقط) وليس بوصفهما لغتين يتحدث بهما على مستوى الأقليات المسيحية .

أما الفارسية فقد ظلت حية في شكل جديد وتطور جديد . فمع تحول إيران إلى

الإسلام ظهر شكل جديد للغة الفارسية ؛ فقد صارت تكتب بالحروف العربية مع استعارة كثير من الكلمات العربية ، التي تختلف عن الفارسية فيما قبل الإسلام مثلما تختلف الإنجليزية عن الإنجلوسكسونية . وفي وقت ما كانت اللغة الفارسية هي اللغة الثقافية الثانية في العالم الإسلامي ، واستخدمت بشكل واسع في آسيا الوسطى والهند وتركيا وإيران ، وأدى مجيء الأتراك من آسيا الوسطى وتأسيس الحكم التركي لمدة بلغت ألف عام (*) على الأراضي الإسلامية إلى إدخال اللغة الرئيسية الثالثة وهي التركية . وقبل مجيء الترك إلى العالم العربي الإسلامي ، كانوا قد ضموا أتباعًا من ديانات مختلفة ، وكتبوا لغتهم بحروف مختلفة ، إلا أن لغاتهم المختلفة حدث معها ما حدث مع الفارسية ، بعد أن أصبح الترك بفئاتهم المختلفة مسلمين ، وأصبحت التركية تكتب بالخط العربي واستعارت كثيراً من الكلمات العربية ثم الفارسية ، ثم ظهرت لغات إسلامية أخرى في جنوبي وجنوب شرق آسيا وأفريقيا السوداء . ولكن اللغات السائدة على الأرض التي شهدت ظهور الإسلام ، والمراكز القديمة للحضارة الإسلامية في آسيا الوسطى وآسيا الجنوبية وشمال افريقيا وأوروبا ، ظلت هي اللغات الرئيسية الثلاث : العربية والفارسية والتركية .

وبشكل عام . . فإن العرب - حتى المتعلمين منهم - لا يعرفون غير العربية والمتعلمون من الفرس يعرفون الفارسية والعربية . والمتعلمون من الترك يعرفون العربية والفارسية والتركية . أصبحت اللغة الفارسية لغة كلاسيكية ، والعربية مزيجاً من كونها كلاسيكية ولغة دينية ، جزءاً مهماً من تكوين المسلم المتعلم من أي جنس أو خلفية لغوية . وتستقي كل من الفارسية والتركية أو اللغات الأخرى التي يستخدمها المسلمون - تكتب بالخط العربي - كلماتها سواء كانت فكرية أو إيضاحية تقريباً بالكامل من مصادر عربية .

إن الترابط بين الدين والكتابة كامل ؛ فاليهود يستخدمون الخط العبري ليس للعبرية ولكن للغات الأخرى التي يتكلمونها ، والمسيحيون يستخدمون الخط السرياني ليس

(*) لم تصل فترة الحكم العثماني للعالم الإسلامي إلى ألف عام كما يقول المؤلف .

للسريانية فقط ولكن للعربية أيضاً . ويستخدم المسلمون الحروف العربية والخط العربي ؛ لكي يسود على الخطوط الأخرى ، ويعتبر المسلمون تعلم لغة أجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة (*) ، وقليل من المسلمين من يحاول أن يتعلم لغة أجنبية ، واللغات غير الإسلامية غير معروفة ، إلا ما جاء من طريق بعض الداخلين أو المعتنقين للإسلام .

يتناقض هذا الموقف تماماً مع ما هو سائد في أوروبا ، التي تنقسم إلى أقطار وأمم كثيرة ، لكل أمة منها لغتها .

لقد وجد الأوروبيون في مرحلة مبكرة أنه من الضروري تعلم لغات أخرى غير لغاتهم والإعداد لذلك . أما في العالم الإسلامي . . فكانت القواعد والمعاجم لأمد طويل مقصورة على اللغة العربية من أجل غرض ديني ، وهو تمكين غير العرب من قراءة وفهم النصوص المقدسة عندما يدخلون في الإسلام . إن نقص الاهتمام باللغات الأجنبية قد وجد في مناطق الحدود من إسبانيا ، ففي خلال الحكم الإسلامي لإسبانيا كانت اللغة الوطنية ، والتي تطورت فيما بعد إلى الإسبانية ، معروفة للمسلمين واليهود كما هي معروفة للمسيحيين ، ودليل ذلك أن الشعراء المسلمين واليهود كانوا يستخدمون اللغة المحلية في أشعارهم الغنائية (الموشحات) التي تكتب بالعربية والعبرية ، هذا هو الأسلوب المسمى الخرجة ، وما هو إلا بيت يكتب بالخط العربي أو العبري وهو يعطينا مصدراً مهماً للمعلومات عن التاريخ المبكر للغة الإسبانية والأدب . ومع هذا فلم يبد أنه قد ترك أي اهتمام عميق بين المسلمين في المجتمع الذي بزغ فيه ، إن الخرجة ليست إلا أسلوباً فنياً مأخوذاً من اللغة الدارجة ، وربما استخدم للإشارة إلى اللهجة الشعبية ، لقد استخدم في طراز معين من الارتجال الشعري ليس أكثر .

وهناك نوع من الأدب يسجل فيه الكتاب العرب الإسبان أمجاد الأندلس - وهذا هو الإسم العربي لإسبانيا المسلمة - ضد ادعاءات الشرق المسلم ، وأن لديهم الكثير

(*) هذا الكلام غير صحيح .

يقولونه عن الأرض الإسبانية وغنى مدنها وإنجازات شعبها المسلم ، وهم يعتقدون أن السكان الذين كانوا يقطنون إسبانيا قبل ذلك أو غيرهم لا يستحقون الذكر ، ومن خلال ثمانية قرون قضاها المسلمون في الأندلس (إسبانيا) لم تبق سوى وثيقة واحدة ، من الممكن أن تشير إلى نوع من الاهتمام باللغة الأوروبية . وهي عبارة عن شذرة متأخرة ليست أكثر من قطعة ورق ، تحوي كلمات ألمانية قليلة ، والمقابل العربي لها [٢] . من بين الأعداد الغفيرة للباحثين وفقهاء اللغة المسلمين الذين ظهروا في إسبانيا المسلمة ، هناك واحد فقط ، هو أبو حيان من غرناطة المتوفى في ١٣٤٤ ذكر أنه كان مهتماً بدراسة لغات أجنبية ، لقد تعلم التركية والحبشية . وهذا لا يعني أن فن الترجمة لم يكن معروفاً في العصر الوسيط للإسلام ، بل على العكس ربما كان نشاط الترجمة إلى العربية أكثر منه في أي لغة أخرى قبل العصور الحديثة .

هناك نصوص دينية وقانونية وأشياء أخرى ترجمت للفارسية والتركية واللغات الإسلامية الأخرى كدليل للمؤمنين ، وترجمت النصوص العلمية والفلسفية للعبرية واللاتينية لتعليم اليهود والمسيحيين ومن خلال هذا أصبحت متاحة للعالم الغربي [٣] .

لقد كانت حركة الترجمة المبكرة إلى العربية من الآداب تختار ما هو أكثر ملاءمة . وطبقاً للروايات العربية بدأت الحركة في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن ، عندما رتب أمير من البيت الأموي [*] لترجمة بعض الأعمال الإغريقية في الكيمياء . وكان المترجم اسمه اسطفان ويبدو من هذا الاسم أنه مسيحي . وتظهر الترجمات المبكرة ، وكأنها قد استخدمت استخداماً خاصاً أو شخصياً ، وقليل منها عاش وبقي . وكان الاختيار يتم باعتبارات علمية عملية ، تركز في مجالي الطب والكيمياء . كذلك كانت

(*) هو خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥ هـ) الذي حاول أن يعوض فشله في الوصول إلى الخلافة بدراسة كتب الصنعة ؛ بغية اكتشاف سر تحويل المعادن إلى ذهب ، بفضل الكيمياء ، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونان الذين وفدوا إلى مصر ، وتعلموا اللغة العربية ، ثم طلب منهم أن ينقلوا بعض كتب الصنعة « الكيمياء » من اللغة اليونانية ، والقبطية ، إلى اللغة العربية ، ويعد هذا في رأيهم أول نقل في الإسلام . ابن النديم / الفهرست ص ٣٣٨ ط التجارية بالقاهرة ١٣٨٤ هـ . (المترجم) .

هناك مادة دينية ترجمت نظراً لأن معرفة الديانتين اليهودية والمسيحية ، ربما تساهم في فهم أفضل للقرآن (*) .

لقد نمت حركة الترجمة على يد الخلفاء العباسيين ، الذين حلوا محل الأمويين في منتصف القرن الثامن . ولقد أدى تحول العاصمة من سوريا إلى العراق إلى تقوية المؤثرات الخاصة بالشرق الأوسط . وإضعاف المؤثرات الخاصة بالبحر المتوسط ؛ فترجمت بعض الأعمال التي عالجت بشكل رئيسي سلطة الدولة والمراسم الخاصة بالبلاط من اللغة الفارسية في العصر الوسيط إلى العربية ، وبعض آخر في الرياضيات .. ترجم عن لغات الهند . ولكن القسط الأكبر من الترجمة كانت من أصل يوناني ؛ فقد ترجمت من اللغة اليونانية مباشرة ، أو بأسلوب غير مباشر عن طريق التراجم السريانية ، ولقد كان المترجمون بلا استثناء غير مسلمين أو من معتنقي الإسلام حديثاً . وكان معظمهم مسيحياً ، وقلة من اليهود والباقون من الصابئة .

لقد كان اختيار الأعمال التي تترجم اختياراً تثقيفياً أو تعليمياً ؛ فالترجمات العربية عن اليونان تركزت في مجالي الفلسفة والعلم . أما الفلسفة فتتكون من الفلسفات الكلاسيكية لأفلاطون وأرسطو ؛ بالإضافة إلى عدد من الفلاسفة القدماء ، وكذلك الكتابات الهرمسية والغنوصية والأفلاطونية الجديدة . أما العلم فيشمل الطب والتنجيم والكيمياء القديمة والفيزياء والرياضيات ، وقد أعطى بعض الاهتمام أيضاً للإنتاج العملي مثل بعض الأعمال في الزراعة ، وهناك مقالتان في هذا المجال قد ترجمتا في القرن العاشر ، إحداهما من النبطية والأخرى من اليونانية .

في الوقت الذي أتى فيه المسلمون إلى الأرض الواقعة شرق البحر المتوسط كانت هذه الأرض من قبل مسيحية ، وإلى حد كبير كان الميراث الهيلليني الذي وصل إلى المسلمين قد سد مجال اختيار أو تنقيح الكنائس المسيحية الشرقية . وهذا بلاشك جزء

(*) هذه مغالطة مقصودة في التعليل ، فلقد أخبرنا القرآن بما فيه الكفاية عن اليهودية والمسيحية وعن اليهود والنصارى كذلك ، وإخبارهم مع أنبيائهم . والقرآن لا يدنو منه شك ، بينما كتبهم قد ملئت بالتحريف والحذف والوضع والافتراء . (المرجم) .

من إيضاح الخيارات التي وضعها المسلمون ، وكذلك المترجمون الذين يعملون لهم : أي النصوص اليونانية تتم ترجمته ، وهذا فقط جزء وليس كل الإيضاح . وبعض الأعمال التي تبناها المسيحيون الشرقيون لم يهتم بها المسلمون بينما بعض ما أهمله المسيحيون قد عولج مباشرة من النصوص القديمة (من خلال الكتاب الكلاسيكيين لبيزنطة).

إن المعيار الأساسي للاختيار كان الاستفادة ، مع أن هذا قد أدى - في وقت ما - إلى الفضول العلمي مثل تحول التنجيم إلى علم الفلك ، وعلم الكيمياء القديمة إلى علم الكيمياء . إن معيار الاستفادة قد طبق على الفلسفة ليس بشكل أقل من العلم ، ولايجب أن تفهم الاستفادة على أنها المعنى النفعي الدقيق ؛ فالغرض منهما تمكين الإنسان من أن يحصل على ما يسميه الفلاسفة المسلمون السعادة Saada ، وهو المعنى المقابل للمفهوم اليوناني Endaimonica . ومع أنه معبر في اصطلاحات مجردة يختص بأفكار مجردة ، فإن هذا التقدير للفلسفة مؤسس على طلب مكاسب نوعية محددة أو مادية ، فإذا كان العلم يختص أو يهتم بالصحة وخير الإنسان في هذا العالم فإن الفلسفة تساعده على الإعداد لما بعد ذلك .

إن دراسة وترجمة النصوص الفلسفية هي أساساً نشاط ديني ، ولقد كان تأثير الفكر اليوناني على علم الكلام الإسلامي عظيماً .

لم تكن هناك أي محاولة لترجمة الشعر الإفريقي أو الدراما أو التاريخ ؛ فالأدب ما هو إلا تجربة أو خبرة شخصية ومرتبط بالثقافة . ومن الصعب تقدير الذوق الجمالي الأجنبي ، وكانت الترجمة الأدبية نادرة جداً في الماضي ، ولا يحدث هذا إلا إذا كان هناك ارتباط نفعي ثقافي قوي ، هناك ترجمات من اليونانية إلى اللاتينية ومن العربية إلى الفارسية ، ومن الصينية إلى اليابانية . وحيثما لا يوجد مثل هذا الارتباط فإن العلم والفلسفة أحياناً يترجمان ، أما الأدب فمن الصعب والنادر أن يترجم . إن تحول الشعر عن الحدود من حضارة إلى أخرى بدأ في أوربا الحديثة المبكرة . أما بالنسبة لمسلمي العصور الوسطى ، فقد كان الأدب القديم أدب مجتمع غربي وثني ، ما كان ليستطيع

تقديم تذوق جمالي أو إرشاد أخلاقي . إن تاريخ هذه الشعوب المحرومة من الرسل والكتب المقدسة ، ما هو إلا تتابع للأحداث بلا هدف أو معنى ؛ فالأدب للمسلم يعني الشعر ويلائمه تراثه الثقافي الفني . إن التاريخ هو من عمل الله كما هو واضح في حياة مجتمعه الإسلامي . أما تاريخ ما قبل الإسلام . . فهو ذو مغزى واحد فقط ، حيث يهيئ لظهور الإسلام ويمهد لوصول المجتمع إلى الإسلام . ولم يحدث حتى عصر النهضة أو فيما بعد النهضة الأوروبية أن مجتمعاً بشرياً لأول مرة كان لديه النضج والفضول معاً لدراسة وتقدير ثقافات مجتمعات أجنبية ومعادية أيضاً .

هناك نوعان آخران للكتابة ولكنهما ذو قيمة محدودة ، وقد ترجما في كميات محدودة أيضاً وهما الجغرافيا والسياسة . ومن خلال ترجمة الأعمال اليونانية في الجغرافيا استطاع المسلمون اكتساب معرفة التكوين الجغرافي للعالم الذي يعيشون فيه . ومن خلال الأعمال اليونانية في السياسة اكتسبوا تصورات أساسية محددة عن طبيعة الدولة والعلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وقد كان الفكر السياسي الأغريقي مع ذلك ذا تأثير محدود ، والكتاب المسلمون في السياسة الذين استخدموا المصطلحات اليونانية لم يكن لهم تأثير قوي بالنسبة للنبع الأساسي للإسلام ؛ حيث كان المؤثر الرئيسي هو القرآن ، وسنة المسلمين الأوائل . وقد انتهت حركة الترجمة عن اليونانية في القرن العاشر ، بعد أن كان قدر عظيم قد ترجم بالفعل .

وبعد ذلك لأسباب عديدة توقفت هذه الحركة ، ولم يكن السبب هو نقص الكتب ، وإنما كان منها كمية كبيرة متاحة وغير مترجمة . فلقد عرفت الإمبراطورية البيزنطية المصادر العظيمة للأدب الاغريقي ؛ فقد كان معروفاً في الأراضي الإسلامية ، ولدينا شواهد على أن مبعوثين من قبل الحكام المسلمين أرسلوا إلى بيزنطة للحصول على نصوص يونانية للترجمة . ولا يمكن أن يعزي توقف الترجمة إلى نقص في المترجمين . وبدون شك فإن شدة استغراب الأقليات المسيحية قد جعلت من الصعب وجود باحثين ذوي معرفة وثيقة باللغة اليونانية . ومع ذلك استمرت الترجمات

فـي المجتمعات المسيحية لاستخـدامهم الخاص ، وهذه لم تعد تصل إلى القدر الشائع من الثقافة العربية ، والتي أصبحت في هذا الوقت مقاومة للتأثيرات الخارجية .

وحجم المادة المترجمـة عن اليونانية كبير جداً ، وكاف لإعطاء الـقارئ المسلم نظرة شاملة ورؤية كـاملة للفلسفة اليـونانية القديمة والطب والعـلم ، مثلما أعطت الهيـلينية المتأخرة لهـم . وعلى النقيض من هذا الحجـم الهائل المترجم عن الإغريـق هناك كتاب واحد ترجم عـن اللاتينية فـي هذه الفترة ، وهو الـتقويم المتأخر لأوروسـيوس ، وهو استثناء لـيس فقط في اللغة ، بل أيضـاً في الموضوع فهو في التاريـخ ، فإن هذا السرد الموجز للـتاريخ الروماني قـد ترجم في إسبانـيا ، واستخدام أساسـاً لكتابات المسـلمين المتأخرة عن تاريخ روما [٤] .

وإذا كان الاهتمـام بروما القديمة قـليلاً فإن الاهتمـام بأوربا في العصـور الوسطى ولغاتها كان أقل ، فعندما وصل سفير من إيطاليا إلى بغداد في عام ٩٠٦م بخطاب من المفترض أنه باللاتينية كانت هناك صعوبة في قراءته طبقاً لقصة عربية معاصرة .

"كان الخطاب على الحريـر الأبيض في كتابة تشبه اليونانـية ، ولكنها ذات حروف مستقيمة . وقد بحثت السلطات عـن مترجم يترجم الخطاب ، وكان بشر الحافي Bishr the eunuch وهو افرنجـي يستطيع قـراءة كتابه هذا للـشعب . وقد أحضر الحـافي في حضرة الخليفة ، وقد قرأ الخطاب وترجمه إلى اليـونانية ، ثم استدعى إسحاق بن حنين (وهو واحد من أعظم العلميين) فترجم الخطاب من اليونانية إلى العربية" [٥] .

والقصة هنـا تصور الجهل بلغة الغـرب اللاتيني في دوائر البـلاط في بغداد . وفي وقت لاحق من نفس القرن ، عـندما صنف الباحث العربي الكبيـر ابن النديم فهرست شاملاً للأدب كتب قائمة بست عشرة لغة ، ناقش بعضها بإسهاب ، وهناك ثلاث لغات غير الروسـية يمكن القول بأنـها أوربية : الأولى هي اليـونانية ، ويبدو أن لديـه معرفة واسعة بها ، والثانيـة هي "كتابة اللومبارد والساكسون" وهو شـــعب يسكـن بين روما وفرنجـا قـرب حاكـم الأندلس ، ويتكـون خطهـم مـن ٢٢ حرفاً . وتـسمى بروفنسية

والكلمة نقلت حرفياً إلى العربية ، وهم يبدأون الكتابة من الشمال إلى اليمين" والثالثة هي لغة الفرنجة وكل ما يعرفه عنها ابن النديم هو ما ورد بالخطاب الذي ذكرناه في ٩٠٦م. ولم تذكر اللغة اللاتينية بالإسم وربما كان خط اللومبارد سكسكون Lombard- Saxon ما هو إلا صدى بعيد لحملات الإمبراطور السكسوني أوتو Otto في إيطاليا [٦] .

رفض العالم الإسلامي دراسة اللغات غير الإسلامية ، ولم يبد أي اهتمام بالأعمال التي كتبت بها ، ولكن المسلمين مع هذا كانوا مجبرين على الاتصال بالغربيين لأغراض غير أدبية . حتى قبل الحروب الصليبية . كانت التجارة بين الأقطار الإسلامية والغرب المسيحي قائمة عبر البحر المتوسط ، ومنذ الحروب الصليبية نمت باطراد في حجمها ومداها . ولابد أنه قد وجد شكل من الاتصال بين التجار الأوروبيين والمشترين في الشرق الأوسط ، والبائعين ، والسماسرة الذين تعاملوا معهم . وأعطت الدبلوماسيين أيضاً دفعة للتحادث وتبادل الخطابات والوثائق . إن العالم الإسلامي لم يتبين الأسلوب الأوروبي في العلاقات الدبلوماسية المستمدة من خلال سفارات مستديمة ، وذلك حتى الأعوام الأخيرة للقرن الثامن عشر ، وكان هناك شكل ما للاتصال الدبلوماسي منذ العصور المبكرة .

وخلال القرن الثامن عشر أضيفت قناة جديدة إلى جانب الاتصال الدبلوماسي والتجارة ، وهو تبادل المعرفة العسكرية والبحرية . إن تحديث الجيش العثماني والبحرية احتاج إلى إيفاد ضباط عسكريين وبحريين من أوروبا ؛ لكي يعلموا الجيش التركي ، ولابد من وجود لغة عامة للتحدث والتفاهم بها ، ومن أجل هذا كان لابد من وجود وسطاء مترجمين بين الجانبين ، ولابد أن أحد الجانبين حاول معرفة لغة الآخر . وبشكل عام فإن الأوروبيين هم الذين حاولوا هذا وليس المسلمون ، أولاً في إسبانيا ثم إيطاليا ، وبعد ذلك في الأقطار الشمالية . وكان هناك أوروبيون من خلال ظروف حياتهم ومنهم من يملكون الفرصة للعيش في البيئة التي تتحدث العربية أو التركية ، والحصول على الأقل على معرفة عملية باللغة المتكلم بها . وبينما كان عدد التجار الأوروبيين الذين

يستقرون في الأقطار الإسلامية يتزايد . . كان هناك قليل من المسلمين الذين أقدموا على الاستقرار في أوروبا ؛ ولذلك كان المسلمون تنقصهم الفرصة ، وكذلك الرغبة في تعلم أي لغة من اللغات الأوروبية ، وعلى طول الحدود الأوروبية للإمبراطورية العثمانية . ربما كان هناك استخدام أكثر للغة والتواريخ والاضطرار أحياناً إلى استخدام مترجمين في الاستفسارات والمداولات والمفاوضات ، خلال حروب الفرنسيين في القرنين ١٦ ، ١٧ ، والتي ربما كانت لغات محلية . وهذه اللغات ولاشك كانت معروفة للمسيحيين القاطنين في البلقان وللمسلمين ، الذين كانوا يذهبون إلى اسطنبول لسبب ما . وكانت اللغة التركية العثمانية بالذات في تعاملها المالي والبيروقراطي تستوعب تماماً عدداً من الكلمات ، ذات أصل بلقاني أو بلغاري ، ومع هذا لم يكن له أثر ضئيل أو غير موجود على الإدراك التركي للغرب .

تشير مثل هذه المعلومات عن المترجمين في خدمة المسلمين إلى أنهم إما مرتدون ؛ أي مسيحيون غربيون استقروا في بلد مسلم واعتنقوا الإسلام ، أو أنهم من أهل الذمة من المسيحيين واليهود ، أما يهود الدولة العثمانية فهم مهاجرون من أوروبا ؛ ولذلك فهم على معرفة ذات فائدة باللغات والأحوال الأوروبية .

وقد نسمع أحياناً عن مترجم مسلم المولد ، أتاحت له الفرصة أو سوء الفرصة تعلم لغة أجنبية ، ومن هؤلاء - عثمان أغا - وهو ضابط فرسان تركي من تمسفار في بلغاريا العثمانية ، قضى ١١ عاماً أسير حرب في أيد نمساوية ، ولذلك تمكن من الحصول على معرفة كبيرة باللغة الألمانية . وإن مذكراته تشير إلى أنه كان يعرف العربية والبلغارية ، ومنها نماذج لترجمة الخط العربي التركي ؛ حيث اقتبسها في مذكراته. وبعد هروبه عمل مترجماً لدى باشا تصفار في أثناء وجوده على حدود وسط أوروبا بين هابيسبورج والإمبراطورية العثمانية [٧] . وبعيداً عن دبلوماسية الحدود استخدم المترجمون في التجارة . وهناك تسجيل لضريبة عثمانية في طرابلس ، تذكر ضريبة المترجمين المسماة ترجمانية [٨] Terjumaniyya وهي كلمة مشتقة من العربية ترجمان ، وهي تعني مترجماً . ويبدو أن المصطلح الغربي dragomon مشتق منها ، وهو يحمل نفس المعنى .

وأكثر المترجمين أهمية هم هؤلاء الذين كانوا يعملون في خدمة الحكام المسلمين مباشرة . وقليل ما هو معروف عن المترجمين الذين كان يستخدمهم سلاطين المماليك في مصر وبقية الحكام المصريين في العصر الوسطى ، مع أن الدلائل الباقية تشير إلى أن أغلب المترجمين كانوا مرتدين من أوروبا .

هناك حالة خاصة مهمة تتعلق بالترجمان تغري بردي ، الذي عمل مترجماً ثم سفيراً للسلطان المملوكي في البندقية ؛ حيث وصل في ١٥٠٦ . إن اسمه تركي ويعني "عطاء الله" ونسبه أصبح ابن عبد الله ، وهذا عادة شائعة عند كثير ممن أسلموا ، وكانت أسماء آبائهم الحقيقية غريبة عن النموذج الإسلامي للأسماء .

يبدو من الواضح أن تغري بردي كان من أصل أوروبي ، مع أن هناك نوعاً من الشك بخصوص دينه الأسبق وجنسيته ؛ فبعض الكتاب المعاصرين يذكرون أنه مسيحي سابق ، وبعض آخر يقول إنه يهودي سابق ، وهناك رحالة مسيحي يقول أنه يهودي المولد ، ولكنه تحول إلى المسيحية ثم إلى الإسلام ، ويقول يهودي إيطالي زار مصر اسمه ماشولان دا فولترا إن تغري بردي من نسل يهودي "ولكنه مسيحي مع المسيحيين ويهودي مع اليهود" وهناك اتفاق عام على أنه ولد في إسبانيا ، ولو أن بعض المصادر تقول إنه ولد في صقلية [٩] .

لدينا أيضاً بعض المعلومات عن مترجم عثماني مبكر ، وكان بلغارياً عُرف بعد إسلامه باسم مراد ، ومع أنه كان في السابعة عشرة من عمره عندما أسره الأتراك في معركة Mohaco عام ١٥٢٦ ، ويبدو أنه كان على ثقافة لاتينية عالية ، وبفضل هذا أصبح مترجماً للأتراك ونيابة عن دينه الجديد . ألف مقالة إرسالية بالتركية ، وبعد ذلك باللاتينية وفي ١٥٥٩ ، ١٥٦٠ ، عندما طلب المبعوث الخاص بالبندقية لاسطنبول ترجمة مقالة سنشترو "عن الشيخوخة Be senectute ليقدمها للسلطان سليمان العظيم . والمرة التالية التي نعرف فيها خبراً عنه هي عندما فصل من وظيفة مترجم ؛ لإصراره على شرب الخمر ، ولقلة المال قبل تكليفاً من موظف أوروبي بترجمة أعمال تركية مختارة للتاريخ العثماني إلى اللاتينية [١٠] .

وتحت ظل العثمانيين كانت وظيفة المترجم الرسمي جزءاً أساسياً في الجهاز الحكومي لإدارة الشئون الخارجية . لقد كان المترجم يشكل جزءاً مهماً من هيئة السكرتارية الرئيسية "رئيس المكتب" أو رئيس أفندي ، وقد كان مسئولاً عن التعاملات مع الحكومات الأجنبية ، وذلك من خلال مكتب الوزير الأكبر . ولدينا قائمة بأسماء مترجمي القرن السادس عشر فصاعداً ، والأسماء المبكرة كلها لمترجمين حديثي الإسلام ، معظمهم أوروبيين ، وهؤلاء المترجمون كانوا بولنديين ونمساويين ويونانيين . وفي القرن السابع عشر أصبح المكتب المسمى الترجمان الأكبر معهداً ، وكان متصوراً لمدة طويلة على مجموعة من العائلات اليونانية التي تعيش في ضاحية فنار في اسطنبول . وهؤلاء لم يعتنقوا الإسلام ولكنهم خلال توليهم لهذا المكتب - مثلما حدث مع آخرين تحت سلطة السلاطين - استطاعوا الحصول على مكانة عظيمة ومؤثرة في النظام العثماني ، ثم إن افتتاح السفارات العثمانية الدائمة في العواصم الأوروبية في الأعوام الأخيرة من القرن « ١٨ » قد وسع مدى نشاطهم ، وحقيقة كان كل واحد من هؤلاء السفراء يرافقه مترجم يوناني - عثماني ، يبدو أنه كان يؤدي دوراً رئيسياً لأعمال السفارة ، وأنه كان يزود الترجمان الأكبر في اسطنبول بتقاريره .

أما الدولة الإسلامية الأخرى . . فيبدو أن اعتمادها على الترجمة كان عرضيا ، ويبدو أنهم اعتمدوا في محيط واسع على غير المسلمين ؛ فقد كان على السفير المغربي لإسبانيا في نهاية القرن « ١٧ » أن يستخدم مسيحياً سورياً يتحدث العربية ، كان مترجماً في خدمة الإسبان . وفي بداية القرن « ١٩ » . . كان السفير الإيراني لأوروبا يصاحبه مسيحي - ربما كان أرمينيا من إيران - كان هو وسيلة اتصال هذا السفير أو المبعوث بالعالم الخارجي .

لم يكن الاهتمام الأوروبي مقتصراً على الحاجات العملية للتجارة والدبلوماسية ، ولا كانت هذه الحاجات تقابل مترجمين تعلموا الترجمة في مجالاتهم . إن الدراسة المتظمة للغة العربية وإعداد أدوات بحث لهذا الغرض بدأ مبكراً جداً ، وإن أول معجم لاتيني عربي قد أعد في القرن الثاني عشر الميلادي . وفي القرن الثالث عشر نجد عدداً من الباحثين الأوروبيين قد شغلوا بدراسة العربية ، وهناك محاولات لترجمة أجزاء من

القرآن إلى اللاتينية . وقد تبع هذا نشر معاجم أكثر ، وفي عام ١٥٣٨ تم نشر أول مقالة باللاتينية عن قواعد اللغة العربية ، وقد شكل هذا نقطة الانطلاق لموجة واسعة من الدراسات العربية في الجامعات الأوروبية ، خلال الامتداد والتوسع الفكري العظيم للقرنين ١٦ و ١٧ .

شهدت نفس الفترة أيضاً نشر قواعد ومعاجم اللغة الفارسية والتركية ، وكذلك دراسات نقدية لها من مخطوطات ونصوص تلك اللغات ، وكان الغرض من هذه النشاطات - في جانب من جوانبه - عملياً مرتبطاً بمتطلبات التجارة والدبلوماسية وفي جوانب أخرى علمياً ؛ وذلك لإشباع التطلع الفكري الذي لا حدود له ، والذي بدأ اشتعال أواره في عصر النهضة . هناك شخصية مميزة هي شخصية ويليام بدويل (١٥٦١ - ١٦٣٢) وهو أول مترجم إنجليزي عربي رئيسي ، أو أول من فهم بالعربية من الإنجليز . وقد تحدث في مقالة عن أهمية اللغة العربية والحاجة لتعلمنا بعضها ، ووصفها بأنها اللغة الوحيدة للدين والرئيسية للدبلوماسية ، والتجارة مع الجزر المحظوظة أو السعيدة حتى البحار الصينية ، ثم يتحدث أخيراً عن قيمتها للأدب والعلم . وبالرغم من إنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في الجامعات الأوروبية ونمو البحوث عن هذه اللغة فإن إنتاج هذه الجامعات كان غير كاف على الإطلاق ؛ لإشباع حاجات التجارة والدبلوماسية القريبة في الشرق الأوسط ، فلوقت طويل كانت القوى الغربية تعتمد على المسيحيين المحليين في الترجمة ، والموظفين في القنصليات والسفارات . وفي القرن الثامن عشر تحول الفرنسيون إلى أسلوب جديد ، وذلك باختيار مجموعة من الشباب الفرنسي وتعليمهم اللغات التي يريدونها . ولمدة قرن من الزمان تعلم المترجمون الفرنسيون بهذا الأسلوب ، وهكذا أصبحت الحكومة الفرنسية قادرة على الاعتماد على مجموعة من المسئولين المتعلمين والمثقفين يعدون عالميين ، وفي نفس الوقت على معرفة بالشرق الأوسط ولغاته علمياً وعملياً . ولقد كان دورهم عظيماً خصوصاً أثناء الحروب الثورية والنابليونية .

وليس هناك أي دليل أو إشارة على الاهتمام الفكري باللغات الغربية وآدابها ، ولم نسمع عن باحث مسلم أو أديب قبل القرن الثامن عشر حاول معرفة اللغات الأوروبية ، أو حاول معرفة القواعد ، أو عمل معجم أو شيئاً من وسائل اللغة الأخرى . وكانت الترجمات الأخرى كذلك قليلة جداً ، وتلك التراجم المعروفة ما هي إلا مختارات من أجل أغراض عملية ، وهذه التراجم قام بها أناس حديثو الإسلام .

هناك كاتب عثماني مسلم وحيد هو الرحالة العظيم أرليا شلبي ، الذي أظهر اهتماماً باللغات الأوروبية ، ولكنه عرض لقرائه نماذج بسيطة وفي سياق قصة طويلة عن زيارته لفيينا ، حيث لاحظ أن سكان الامبراطورية النمساوية يتكلمون لغتين رئيسيتين : المجرية الألمانية ، والألمانية تسمى في التركية Nemce وهي الأهم . وقد لاحظ « أرليا شلبي » أن الـ Nemce لغة صعبة جداً وبها كلمات فارسية كثيرة . وسبب هذه الحقيقة الغريبة في رأي « أرليا » هو أن هذا الشعب جاء من فارس بأطفال Manucihr ، والإيضاح المحتمل لهذا هو أن أرليا قد لاحظ وجود بعض التشابه في الكلمات مثل الألمانية Tochter والفارسية Dmkhlar والألمانية Bznder والفارسية Bviader . وهذا يرجع إلى أن اللغتين من أصل هندي أوروبي .

يستطرد أرليا ليعطينا نماذج من اللغة الألمانية ، فبعض الصلوات نقلت إلى الخط التركي العربي مع قائمة بالأعداد والكلمات وبعض التعبيرات البسيطة . وقد لاحظ أنه مع أن Nemce كاثوليكيون ، ويتبعون حكم بابا روما فإن لغتهم تختلف عن لغة بابا روما ، وهي الإسبانية [١١] .

إن اسم Nemce الذي استخدمه الكتاب العثمانيون للإشارة إلى النمسا والنمساويين ، مشتق من كلمة سلافية تعني « أبكم Dumb » ، وهي مستخدمة في معظم اللغات السلافية للدلالة على الإيمان . بينما يعرض أرليا تفسيراً مختلفاً : « إن كلمة Nemce في المجرية تعني النفي « لست » ، وهكذا Nemce تعني أنا لست تشيكياً ، أنا ألماني » [١٢] .

يعرض أرليا أيضاً بعض المعرفة اللغوية ، التي لم تقتصر على أشعار ألمانية

وكلمات؛ فهو يعرض بعض نماذج للغة يطلق عليها اليهودية وعرفها من اليهود السفارديم - في فلسطين العثمانية ، ويبدو أنه لم يكن يعرف على الإطلاق أن هذه هي اللغة الإسبانية" [١٣] .

بشكل عام يبدو أن العالم الإسلامي لم يكلف نفسه عناء معرفة ماهية اللغات المسيحية . إن العدد الكبير للغات في أوربا يبدو أنه حيَّر أو أربك الملاحظين المسلمين ، وقبل أرليا بأعوام قليلة كان هناك واحد من أعظم الباحثين المسلمين في عصره ، هو كاتب شلبي عرض على قرائه هذه الخريطة اللغوية لأوروبا ؛ فهو يقول : (في الأيام أو الأزمان السابقة) "هذا الملاح اليائس" تعود على الحديث باليونانية ، وهي بجانب كونها لغة الباحثين والقدماء كانت مستخدمة فعلاً . ولكن بدأ الناس الذين يتكلمونها ينقرضون ، وبعد ذلك ظهرت اللغة اللاتينية ، وهذه اللغة التي هي أساساً مشتقة من اليونانية أصبحت ذات شأن ، وعلى جانب كبير من الأهمية . ولكن هذا الشعب اضمحل أيضاً ، وظلت هاتان اللغتان يستخدمهما الباحثون في أوروبا ، وأكثر الكتب علماً كانت بهاتين اللغتين ، ولكن بعد ذلك بدأ شعب كل منطقة يكتب بلغته الخاصة ، وأصبح عدد كبير من اللغات مستخدماً بشكل شائع . هكذا في انجلترا مع لغات ، هي : Scosiq, Anglia, Hilerinia ، أما في إسبانيا والبرتغال فكان هناك أيضاً الكثير من اللغات ، وكذلك في فرنسا ، وبين سكان ساحل البحر المتوسط ، وعلى ساحل الأطلنطي - وشبيهة بذلك النمسا فهم يتكلمون التشيكية والمجرية والنمساوية . وتوجد أيضاً لغات أخرى مثل المسكوفية والهولندية . وفي وسط إيطاليا يتكلمون السويسرية والإيطالية التي بجانب كونها مستخدمة في إيطاليا يستخدمها يهود تركيا ، ويطلق عليها اللغة الافرنجية .

أما في شرق أوروبا فيتكلمون لغات مثل السلافة والألبانية والبوسنيه والرومية والبلغارية والصربية ، كل هذه اللغات تختلف فيما بينها أيضاً ؛ فأحسن وأوضح لهجة إيطالية تسمى التوسكانية ، ولغة البندقية موصوفة بأنها رديئة . وأنقى لغة في فرنسا تسمى الفرنسية. ولقد لاحظ كاتب شلبي أن اللاتينية لا تزال لغة التعليم ، ولها مكانة

في المسيحية مثل مكانة العربية للإسلام والمسلمين . ملاحظة مماثلة لهذا أبداها سفير مغربي من القرن السابع عشر ، لاحظ أهمية اللغة اللاتينية في التعليم الإسباني ، ووصفها بأنها مماثلة للنحو والبلاغة ، يقصد اللغة العربية الفصحى [١٤] . إن قصة كاتب شلبي عن لغات أوروبا تدهشنا في كل تفاصيلها وجملها ، لقد سمع عن مثل تلك الغات المحلية مثل الباسك ، ولم يفرق بينها وبين تلك اللغات الرئيسيةمثل الفرنسية والألمانية . وإن كان يعرف أحسن من أرليا ، فإنه يعرف أن اللغة التي يتكلمها اليهود في تركيا ليست « اللغة اليهودية » ، ولكنها لغة أوربية ويحددها بأنها الإيطالية بدلاً من الإسبانية . إن تصوره عن لغات روما على أية حال متضارب ، ويبدو أن معلومات شلبي هذا قد جاءت عن طريق رحالة أوربى . . فإن أسلوبه في مناقشة هذه العبارات المبهمة وغير المهمة شبيه إلى حد كبير بأسلوب مكتشف أوربي متأخر ، يناقش اللهجات القبلية للقارة المظلمة [١٥] .

ولكن أي لغات تعلمها المسلمون ؟ ربما من أقدم المعلومات عن ذلك ما دون في فقرة عن مؤرخ الحرب الصليبية الألماني Arnold of Lubeck فقد نقل عن مبعوث ألماني زار سوريا ، وفلسطين في ١٢٧٥ ، عندما تكلم عن جماعة الحشاشين (*) Assassin يشرح أن رئيس الحشاشين كان يحضر الفتيان منذ طفولتهم ويدربهم على مهمتهم المرعبة . ومن بين الأشياء الأخرى "كان يعلمهم لغات متعددة مثل اللاتينية واليونانية والرومية ولغات أخرى كثيرة" [١٦] .

وربما تشير كلمة « رومانية » إلى اللغة التي يتكلم بها المعسكر الصليبي ، وربما تكون هذه القصة خيالية ، إلا أنها تعطي إشارة لأي اللغات من المعتقد أنها ذات فائدة .

وبشكل عام فإن الإشارات الوحيدة التي لدينا من العصور الوسطى عن استخدام المسلمين للغات الأجنبية تشير إلى اللغة الأم للمعتنقين الجدد للإسلام . وليس لدينا حتى عصر العثمانيين أي معلومات يوثق بها أن محمد الثاني فاتح القسطنطينية ، قد ذكر

زائر من البندقية معاصر له إنه يتكلم الإغريقية والسلافية كما يتكلم التركية ، ويقال إنه استضاف متخصصي العلوم الإنسانية الإيطاليين ، وإنه أبدى اهتماماً بأعمالهم ، ومنحه كاتب سيرته باليونانية لقب محب للهلينية . ومن غير المحتمل أن السلطان كان يعرف أي لغة غير اللغات الإسلامية ، ولكن اليونانية بالتأكيد كانت شائعة بين العثمانيين الأوائل وكانت معرفة اللغات السلافية ، منتشرة أيضاً بين المعتنقين الجدد للإسلام ، وكذلك المجندين الذين شكلوا جزءاً كبيراً من الدولة العثمانية .

هناك أيضاً فرمانات Fermans باليونانية ، صدرت من ديوان محمد الغازي (أو الفاتح) نفسه ، ويطلق فيها على الإمبراطور Omegas Authentes أي السيد العظيم [١٧] . إن هذا اللقب الإيطالي والتركي Efendi ربما يكونان مأخوذين من اللقب اليوناني . إن الأشكال المتعددة للغة الإيطالية كانت شائعة الاستخدام في وسط وشرق البحر المتوسط ، ومن المحتمل أن البحارة الأتراك - وكان كثير منهم من أصل أو موطن مسيحي - كانت لديهم معرفة عملة بهذه اللغة [١٨] .

كانت اللهجة التركية البحرية فى القرن السادس عشر قد أخذت عدداً كبيراً من الكلمات الإيطالية ، بعضها بطريقة مباشرة وبعضها عن طريق اليونانية ؛ فهي تحوي كلمات مثل قبودان Kapudan ، للربان البحري . ومن هنا نجد قبطان باشا تعني قائد الإسطول العثماني و Lostozmo أو Nostozmo وهي كلمة شائعة في البحر المتوسط ، وتعني رئيس البحارة في السفينة ، وربما ترجع إلى الكلمة الإسبانية العامية أو البرتغالية التي يستخدمها عبيد السفن وتعني رئيسنا . وكلمة Foztona في التركية ، والتي جاءت لتعني عاصفة Mangia ، هي كلمة يستخدمها البحارة الأتراك ، أصلها الإيطالي واضح وهي تعني الإطعام . يرجع معظم هذه الكلمات البحرية المستعارة إلى أصل إيطالي؛ خاصة لهجة أهل البندقية ولكن بعضها جاء من الإسبانية أو البرتغالية . إن عدد هذه الكلمات المستعارة يتزايد في التركية الشائعة أو العامية ؛ خاصة المتصلة بالبحر .

إن ترسانات بناء السفن والملاحظة والصيد تشهد ببعض التأثير الغربي . ومن

دواعي الدهشة ألا يكون هناك وجه مقارنة بين الكلمات الغربية في اللغة التركية ، وبين ما للغربية أو الفارسية فيها حتى عصور حديثة نسبياً .

ويبدو أن الإيطالية ظلت لزمن ما معروفة جيداً بين اللغات الأوروبية للأتراك ، وحتى القرن التاسع عشر كانت اللغات أو الكلمات الأوروبية في اللغة التركية إيطالية في صيغتها ؛ فهي تشمل مصطلحات سياسية وفنية ؛ خاصة صناعة الملابس ؛ فهي تحتاج للدلالة على الأثواب والأدوات والمعاهد اللازمة من أوروبا [١٩] .

إن الوثائق التي تجمع بين كتابات من اللغات الأوروبية والتركية قد اقتصرت على اللاتينية ، ما دامت لغة أوروبية رسمية وشرعية ودبلوماسية .

وهكذا فإن معاهدات Carbuitz في Passarourtz, Logg ١٧١٨ كتبت باللاتينية ، وأيضاً بالتركية ، ومع هذا فإن الإيطالية اكتسبت أرضاً جديدة ، وفيما بعد في القرن الثامن عشر كانت المعاهدات مثلما في معاهدة Kücük kaynarca ١٧٧٤ كانت تكتب بهذه اللغة .

في القرن الثامن عشر نسمع للمرة الأولى عن دبلوماسي تركي يتحدث الفرنسية . وقد كان اسم هذا الدبلوماسي سيد أفندي وكان قد رافق أباه حين سافر إلى باريس سفيراً في ١٧٢١ ، وسافر بنفسه بعد ذلك في بعثات دبلوماسية كثيرة . ويقول مؤرخ عثماني أن سيداً درس وتعلم اللاتينية . ومن غير المحتمل - بدرجة كبيرة - أن عثمانياً من القرن الثامن عشر قد عمل على قضاء وقته تحصيلاً للغة وثنية ميتة . ولقد لاحظ ناقد فرنسي معاصر أن "سيداً يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها" ، وربما كان هذا الكلام من خيال المؤرخ [٢٠] . وحتى ذلك الوقت كانت أفكار العثمانيين عن خريطة أوروبا اللغوية لا تزال غامضة .

ويبدو أن ظهور الفرنسية قد بدأ بتوظيف الضباط ، الذين يتحدثون الفرنسية في مدارس التدريب العسكرية في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر . وأن نمو التأثير للغة الفرنسية ارتبط بتلك الفترة حيث كانت مراسلات الدبلوماسيين الروس والوزراء

النمساويين الأجانب مع سفاراتهم في القسطنطينية ، تكتب بشكل واسع بالفرنسية . ومن القرن التاسع عشر وصاعداً ، بدأت الكلمات التركية ذات الأصل الأوروبي تأخذ الصبغة الفرنسية أكثر من الإيطالية . مثل كلمتي مجلس الشيوخ Senato والبرلمانات Parlements وهما كلمتان مأخوذتان منذ وقت مبكر وتظهر فيهما الصيغة الإيطالية . لقد سمع الأتراك عن مجالس الشيوخ والبرلمانات التي نشأت عندنا في عصر مبكر في أوروبا القديمة . ولم يقابلوا شيوخاً Senators حتى بعد مضي وقت بعد ذلك ، وهم يعرفون في التركية Senators ، وأحياناً تحل الصيغة الفرنسية محل الصيغة الإيطالية المعادلة . وهكذا كانت البطلة في الأسطورة الرومانية التركية تلبس روب دي كاميرا Roba Di Camera وبالتالي غير الـ روب دي شامبر Robe Di Chambre ثم جاءت الإنكليزية في وقت متأخر .

وفي ١٨٠٩ فسر السفير البريطاني في القسطنطينية لماذا كان عليه أن يكتب المعاهدة مع الأتراك بالفرنسية مع أن المفاوضات تمت في القسطنطينية ، بأنه ما كان ليجد ترجماناً يجيد الإنجليزية تماماً ، لكي يكون مسؤولاً عن الإمضاء الخاص بالمفاوض التركي . ولم يحدث حتى عصر الرياضة والتكنولوجيا والسفر بالطائرات أن أحرزت الإنجليزية أي تأثير [1] .

هناك عملية موازية لهذا ربما يمكن تتبعها في إطار شمال إفريقيا ، حيث كانت اللغتان الإيطالية والفرنسية معروفتين بشكل أوسع من أي لغات أوروبية أخرى ، وحيث حلت محلهما فيما بعد اللغة الفرنسية . أما في إيران والهند فما كان للإيطالية تأثير يذكر . ويبدو أن البرتغالية قد تركت تأثيراً طفيفاً ، أما بالنسبة لمعظم مسلمي إيران والهند . . فقد قدم الغرب نفسه في صيغة إنجليزية أو فرنسية . إن سيادة الإدراك الفرنسي من الممكن أن تراها في الكلمة الفارسية المعادلة للولايات المتحدة فهي (. . .)

إن أسلوب المدارس العسكرية الغربي الذي أسسه السلاطين والباشاوات المصلحون ، وكذلك تدريب الشباب المدنيين الصغار لخدمة الدبلوماسية الحديثة قد خلق

عنصراً جديداً في المجتمع المسلم خلق طبقة من الضباط الشباب المسئولين على علم باللغات الأوروبية ، عادة الفرنسية ، وعلى اهتمام بدراسة بعض مظاهر الحضارة الغربية ومدربين على الاقتداء بالخبراء الغربيين المسيحيين ؛ بوصفهم معلمين ومرشدين إلى الوسائل المناسبة . وهناك نص نشر في Üsküdar في ١٨٠٣ ربما كان من عمل مترجم يوناني في الباب العالي ، حيث وضع النص التالي على لسان ضابط مهندس عثماني :

"لكي أتعلم عجائب العلم الأوربي صممت على أن أجد المدخل لهذا . ولم أضيع الوقت ، ففرغت نفسي لدراسة اللغة الفرنسية على أنها أكثر اللغات عالمية ، وأقدرها على تمكيني من معرفة المؤلفين في مجال العلوم . لقد كنت شديد الفرح لرؤية وطني على الحالة التي أتمنى أن يكون فيها كل يوم مضاءً بمشاعل العلوم والآداب والفنون [٢٢] .

إن الانتقال من الاتجاه القديم - وهو احتقار لغات الوثنيين - إلى اتجاه جديد ، مؤداه احترام وسائل سمو الفنون والمعرفة كان ولاشك سهلاً ، وفي الأعوام الأولى للقرن التاسع عشر . . كان العثمانيون لا يزالون يعتمدون بشكل كبير على الموظفين اليونانيين لمعرفتهم باللغات الأوروبية ، ولمعرفتهم - إلى حد ما - بالأحداث الجارية في أوروبا وشئونها . إن أخطاء هذا الموقف للباب العالي قد كشفت عنها الثورة التي حدثت في اليونان ، وجعلت اليونانيين والأتراك في حالة حرب ، ويبدو أن حكومة السلطان قد اعتقدت - ربما عن خطأ - أنه ليس من المستطاع أن يوثق بأمر كبير المترجمين اليونانيين ستفاراكي استاش فقررت إعدامه ، وتعيين مسلم مكانه .

إن القول دائماً أيسر من الفعل ، فإن الإصلاحات التي تمت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قد أدت إلى ظهور قليل من الأتراك الثقات في اللغات الغربية ، ولكن في هذا الوقت كان أغلبهم قد مات والقلة الباقية ، إما اختفوا أو نسوا فنونهم ومهاراتهم اللغوية . ويخبرنا مؤرخ تركي معاصر أنه لمدة أسبوعين أو ثلاثة تراكمت الأوراق اليونانية أو الفرنجية في مكتب الترجمان الرئيسي في الباب العالي . ولمعالجة هذا الأمر لجأ السلطان إلى المكان الآخر الوحيد الذي تستعمل فيه اللغات

الأجنبية ، وهو المدارس العسكرية . وقد أصدر أمراً بنقل يحيى أفندي المدرس بالمدرسة العسكرية للهندسة إلى مكتب الترجمان ، ويؤكد المؤرخ المعاصر ساني زاده Sani zada أهمية هذا النقل فهو يضع - لأول مرة - الترجمة وقيادات العلاقات الأجنبية في يد مسلمة ، وهكذا جعل معرفة واستخدام اللغات الأجنبية مهنة إسلامية محترمة [٢٣] . حتى يحيى نفسه لم يكن من أصل إسلامي فقد تعدد الرأي فيه . أيرجع إلى أصل بلغاري أم يوناني أم يهودي ؟ لقد كوّن يحيى أفندي جماعة من التراجمة والسفراء ، كان لهم دور مهم في تركيا في القرن التاسع عشر عند وفاته في ١٨٢٣ أو ١٨٢٤ ، وتبعه معلم خر نقل من مدرسة الهندسة هو المعلم إسحاق Hoja Ishak ، وهو يهودي اعتنق الإسلام ورأس المكتب حتى ١٨٣٠ عندما عاد إلى التدريس ثانية .

ويبدو أن الاعتماد على المسلمين كان يقابله كثير من الصعوبات ، وتقابله مقاومة ذات خطر ؛ فقد كان على السلطان المصلح محمود الثاني أن يعتذر عن إدخال اللغة الفرنسية في المنهج عام ١٨٣٨ في الخطبة الموجهة للطلاب في افتتاح المدرسة الطبية الجديدة يقول :

"إنكم ستدرسون علم الطب في فرنسا . إن غرضي من تعلمكم الفرنسية ليس أن تعرفوا الفرنسية لذاتها ، ولكن لكي تتعلموا الطب ، ورويداً رويداً نحوله إلى لغتنا . لذلك اعملوا جيداً على تحصيل علم الطب من مدرستكم ونقله إلى التركية ، وجعله مستخدماً فيها بشكل واسع" [٢٥] .

في هذه الملاحظات يشير السلطان إلى واحدة من المشكلات الأساسية أمام عملية الاستغراب Westernization وحتى عام ١٨٣٨ - العام الذي ألقيت فيه الخطبة - كان عدد الأتراك الذين كانوا على معرفة ذات شأن باللغة العربية لا يزال صغيراً بشكل عظيم . فلقد كان الجانب الأعظم من عملية التعليم في المدارس - حتى على أيدي المعلمين الفنيين في القوات المسلحة - يمر من خلال الترجمة . وإلى حد كبير كان المترجمون لايزالون مسيحيي الأصل وقد أدى حضورهم إلى تقوية الحاجز أكثر من إضعافه ؛ فقد كان من المكروه التعلم تحت قيادة الإفرنج ، بل لقد كان من الأسوأ أن

تتم عملية التعليم أو القيادة من خلال مترجم يوناني أو أرمني، لغته أو خبرته ومظهره يبعثان على احترامه بين (الطلبة) أو المسيحيين الأتراك .

ولأسباب عديدة . . كان من الضروري للطلبة المسلمين تعلم اللغات الأجنبية . والغرض بالنسبة لهم هو تحصيل المعرفة المفيدة طبية أو تكنولوجية أو علمية أو عسكرية ، ليس أكثر ، ولكن من الصعب السير على هذا المنهج .

لقد كان التلاميذ وبعد ذلك الطلبة يتعلمون الفرنسية ، وكانوا ينظرون إلى الفرنسيين والأوروبيين نظرة التلميذ لأستاذه .

وفي منتصف القرن التاسع عشر أصبح تعلم لغة أوروبية وسيلة ضرورية أمام الشباب المسلم الطموح ، الذي يأمل في الحصول على وظيفة في الحكومة ، وكان مكتب الترجمة التابع للجيش والقصر واحداً من الطرق إلى الترقية والسلطة .